ومن هنا كانت رؤية الصعلوك للعالم النسائى من منظور مختلف عما ساد بين أبناء القبائل ، فلا هو قصد إلى غزل صريح فى عالم الحرائر أو القيان كما عرفنا من أمر امرئ القيس أو الأعشى أو طرفة ، ولا هو سار على منهج المتيمين على غرار ما شاع فى غزليات عنترة وأمثاله ، ولكنه شق سبلا أخرى مخالفة راحت تعكس مخالفته لكل ما يدخل فى النسيج القبلى ، بل راح يحكى قصة صراعه مع القيم عبر حوانبها الاقتصادية ، والاجتماعية والفنية على السواء ، وهكذا شاء الصعلوك ، وشاء له واقعه أن يتفرد بموقفه تجاه عالم المرأة ، ألم يُنسب بعضهم إلى أمهاتهم على غرار من كان السليك بن السلكة، وخفاف بن ندبة ؟ (١٤) .

كما تغنى بعضهم من واقع حواره حول أمه على سبيل الإطلاق والتعميم الجامع لأبناء الطائفة على نحو ما سجله التنفرى فى لامية العرب والتى نظم فى مطلعها :

أَقِيمُوا بَنِي أُمِّي صُدُورَ مَطِيِّكُم .. فإنِّيَ إلى قَوْمٍ سِواكم لأَمْيَلُ .

بل قد حلا لفريق منهم أن يطلق على زعيمهم الشعبى (عروة) أم العيال ! تشبها له بعطاء الأم ، ودأبها على خدمة أبنائها ، وقبولها لكل صور المعاناة من أجل رفع المعاناة عنهم . وكذلك كان أمر الصعلوك الزعيم إذا ما طلبوا منه إغاثتهم : « يأبا الصعاليك أغثنا »

لقد أصبحت رموز القرابة لديهم كاشفة عن خصوصية عالمهم ، مرشحة لطبيعة توحد فكرهم ومنهج حياتهم فى ظل صراعاتهم الدامية الممتدة من أجل البقاء فى سياق عيش كريم ، مما ظل دافعاً إلى استمرارية لغتهم عبر هذا المستوى من التعامل والمعالجة ، فإذا بمالك بن الريب - فى العصر الأموى - تستوقفه صلات القربى ، ويشغله عالم المرأة الباكية على فراقه لها (على عكس ما كان المنظور الطللى) مرة أثناء رحلته مجاهدا فى جيش سعيد بن عثمان بن عفان ، وأخرى إذا ما بلغها نبأ موته (على نحو ما تخيله الشاعر)